مجلة العلوم الإنسانية ——— عدد 17- جوان 2002، ص.203-213 ———

السيميائية و السيميولوجيا

ملخص

إن طرح العلاقة القائمة بين السيميائية و السيميولوجيا أمر ضروري، تقتضيه النزعة العلمية الصارمة، في مجال البحث في معاني النصوص اللغوية و غير اللغوية، و ذلك لأن القارئ كثيرا ما يصادف دراسات تحمل إحدى التسميتين، و تصل وصلا تعسفيا بين اتجاهين أو منهجين مختلفين، قد يؤدي بالقارئ المبتدئ إلى تعتيم كبير، لذا وجب عرض الفرق الذي بينهما، و تحديد مواطنه، من خلال التركيز على موضوعهما، و إشكالية الدليل لديهمـــا، و كذلك مسارهمـــا، للتأكيد على أنهما حقلان معرفيان واسعـــان، و متباينان في معالجة المعنى ، لكل منهما منطلقات و تصورات و مفاهيم متميزة.

أ/ خيرة عـــون
كلية الآداب و اللغات
قسم اللغة العربية
جامعة منتوري
قسنطينة، الجزائر

Résumé

Cet article présente la sémiotique en tant que théorie du sens, dans sa relation avec la sémiologie, compte tenu des subtilités terminologiques qui paraissent futiles et qui semblent pourtant nécessaires, comme point de départ, dans le choix du chercheur dans le domaine de la signification, car elles permettent de situer les fondements essentiels de ces deux projets. Sachant que ces fondements président à la différenciation de ces derniers, nous avons essayé de cerner les contours de celle-ci à travers l'objet de chacun des deux projets, son parcours et sa conception du signe.

يبدو التشابه بين السيميائية و السيميولوجيا أمرا مؤكدا، من خلال وحدة الموضوع، إلا أن هذا التشابه الموحي بأن لا فرق بينهما، سرعان ما يزول، لتظهر إثره اختلافات جوهرية تجعل منهما حقلين معرفيين، لكل منهما منطلقات و تصورات و مفاهيم متباعدة، تتفاوت في ما بينها، من حيث دورها في إبراز التميز بين هذين المجالين المعرفيين، و تتعلق تلك المنطلقات والتصورات بعناصر أساسية، تشكل زاوية نظر، ننفذ من خلالها إلى مواطن الاختلاف بين السيميائية و السيميولوجيا، ألا و هي الموضوع و نظام الدليل بأبعاده المتعددة و مسار كل منهما، لذا فالتركيز على الموضوع، و نظام الدليل لديهما و مسارهما، يكون منفذا للكشف عن الفرق بينهما، و ذلك على النحو الآتي:

© جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر 2002.

1 ــ الموضوع

لعل من الصعوبات الأساسية التي يعانيها القارئ عند محاولة التعرف على السيميائية و السيميولوجيا، ذلك التداخل و الالتقــاء الصريح بين مصطلح سيميــائية (sémiotique) و مصطلح سيميولوجيا (sémiologie) من حيث المفهوم، إذ جمعهما في البداية تعريف واحد تمثل في كون:" السيميائية أو السيميولوجيا هي علم العلامات" (1) و هو التعريف الوارد في المعجم الموسوعي لعلوم الكلام، تحت مادة السيميائية،على الرغم من القاسم المشترك الذي يوحد بينهما، ألا وهو العلامة أو الدليل، يظل الاختلاف قائما بينهما، فإذا كانت السيميولوجيا تنبني أساسا على التصور السوسيري لعلم الأدلة و للدليل أيضا، حيث يرى رولان بارت بأن علم العلامات أو علم الأدلة أو السيميولوجيا على اختلاف المصطلح بين الدارسين، يجب أن يكون فرعا من اللسانيات: " ليست اللسانيات جزءا، ولو مفضلا من علم الأدلة العام و لكن الجزء هو علم الأدلة، باعتباره، فرعا من اللسانيات: و بالضبط ذلك القسم الذي سيتحمل على عاتقه كبريات الوحدات الخطابية الدالة" (2).

إن ما يلاحظ على هذا الاتجاه هو قلب التصور السوسيري في جانب من جوانبه، إذ أصبحت السيميولوجيا فرعا بعد أن كانت أصلا، وفق ما تنبأ به دي سوسير: "يمكننا إذا تصور علم يدرس حياة العلامات في صدر الحياة الاجتماعية، و هو يشكل جانبا من علم النفس الاجتماعي، و بالتالي من علم النفس العام. إننا ندعوه بـــ "الأعراضية" sémiologie تلك التي تدلنا على كنه و ماهية العلامات... و ما الألسنية إلا جزء من هذا العلم العام (3) .

انطلاقا من موضوع السيميولوجيا المتمثل في العلامات، ماهيتها و القوانين التي تنظمها، تلتقي السيميولوجيا بالسيميائية من خلال كون هذه الأخيرة في مرحلة من مراحل تشكلها تحدد موضوعها بالطريقة نفسها التي عين بها موضوع السيميولوجيا حيث يتمثل في الكشف عن النظام الذي نخضع له الأدلة بوصفها نظاما دالا (système de signification) (4). تتميز السيميولوجيا أيضا عن السيميائية من خلال تصور كل منهما للدليل، فالسيميولوجيا ذات الأصل السوسيري تعتبر الدليل وحدة ذات طابع ثنائي إذ يتكون الدليل من دال و مدلول تؤطرهما علاقة اعتباطية، فلا علة لوجود الدال إلا بوجود مدلوله، و الدليل اللساني يختلف عن الدليل الطبيعي من حيث كون الأول يقوم على الاعتباطية (5) في حين نجد تصور الدليل الذي تستند إليه السيميائية مختلفا حيث حدده ش. س. بيرس (C.S. Peirce) تحديــدا ثلاثي الأساس (6) يتمثل في الممثل (représentamen) و الموضوع (objet) والمؤول (interprétant)، إذ يقدم بيرس تصنيفا دقيقا وشاملا للدليل بأنواعه، ينعكس ذلك التصنيف على السيميائية ذات التوجه البيرسي انعكاسا صريحا، و ذلك لأن تصور بيرس بتحديداته المختلفة حول الدليل بأنواعه : الإشارة (indice) و الأيقونة (icône) و الرمز (symbole)، يمس كل الظواهر الدالة، حتى تلك التي ينعدم فيها المرسل، كالظواهر الطبيعية، فارتفاع درجة

النبض بوصفها دالا على الحمى لدى الطبيب الذي يتلقى هذا الدليل، من هنا تتسع دائرة السيميائية، لتشمل كل الممارسات الثقافية باعتبارها سيرورات تواصلية، و ليصبح هدف السيميائية هو الكشف عن طرق تواجد أنظمة داخلية تحكم تلك السيرورات الثقافية (7). و تجدر الإشارة أيضا أن السيميولوجيا تتميز من خلال ارتكازها على مفهوم التواصل (communication)، المحدد بنية التخاطب (intention communicative)، و هو المنطلق الذي تبناه كل من بويسنس (E. Buyssens) و بريتو (Prieto)، و على الرغم من تبني الباحثين لنية التواصل كمفهوم فإنهم يختلفون حول مضمون هذا المصطلح، الذي يتصل بمفهوم آخر ألا و هو المقصدية (intentionnalité) عند هوسرل (Husserl)، فالدارسون الذين تأثروا بتصور بويسنس يعترفون بوجود سيميولوجيا أخرى إلى جانب سيميولوجيا التواصل، و يسمونها سيميولوجيا المعنى (sémiologie de la signification)(8) ، و من هنا تظل السيميولوجيا مرتبطة بنموذج التواصل، المتعدد الأبعاد، و الذي نتمثله من خلال دورة الخطاب بأركانها البارزة ألا و هي المرسل و المتلقي و السنن و القناة و الرسالة و السياق.

2 ــ نظام الدليل و الاتجاهات السيميائية و السيميولوجية

أ ــ لدى شارل سندرس بيرس

يقتضي التمييز بين السيميائية و السيميولوجيا مزيدا من التوضيح حول تصور نظام الدليل لدى كل من سوسير و بيرس، فالدليل عند هذا الأخيرهو تلك الوحدة المنتظمة داخل صيرورة متجانسة تدعى : sémiosis، تتشكل وفق الرسم التالي :

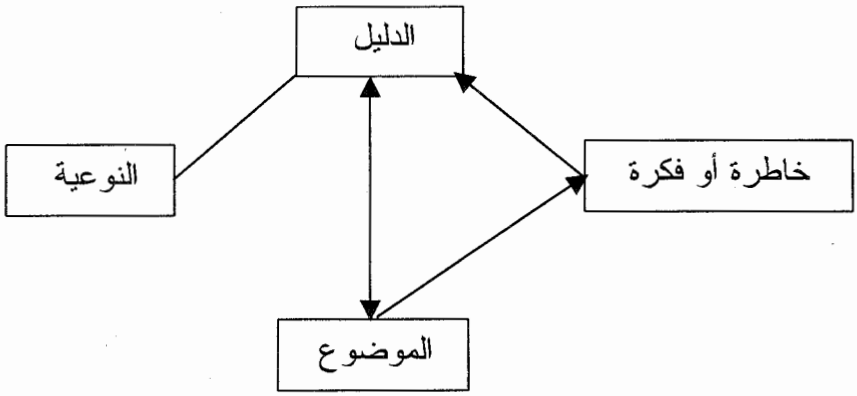

إن الفكرة الأساسية المولدة لتصور الدليل عند بيرس، تتمثل في أن إدراك العالم يتم عبر التفاعل القائم بين الذوات و النشاط السيميائي، إذ يحصل التفاعل بواسطة الأدلة، نظرا للعلاقة الموجودة بين الناس و الأدلة باعتبارها رموزا تقوم بتمثيل الواقع

الذي يدفعهم إلى السعي و الحركة، و من هنا تحدد العلاقة القائمة بين أطراف الدليل عند بيرس وفقا للظاهراتية (phénoménologie)، أي وفقا للصيغ الثلاث (9)، التي تبدو عليها الكائنات في حالة الظهور حين إدراكها، و تتمثل الصيغ الثلاث فيما يلي :

1ــ الأولاوانية (priméité) : تخص عالم الممكنات في الدرجة الأولى أو في المرتبة الأولى، إنه الكائن في مباشرية كينونته من دون الإحالة إلى مرجع ما.

2ــ الثنيانية (secondéité) : فهي متعلقة بعالم الموجودات، العالم الثاني المحدد للأول، من خلال مقولة وجود كل شيء، و مقولة الحركة و المحسوس و الصراع ... إلخ.

3ــ الثلثانية (tiercéité): عالم المتطلبات و الضروريات، بدونه لا يكون هناك تقدم و لا علاقة، فالعلاقة الثلثانية يتمثل بها كل واحد من العوالم الثلاثة في الآخرين، إنها مقولة التركيب والوساطة والفكر و الوعي و العموم و التفسير و القوانين و اللغة و المترجم ... إلخ، استنادا إلى العلاقة الثلاثية، يعرف بيرس الدليل بــ: "الدليل أو الوحدة الممثلة (représentamen) هو الأول الذي يقع في علاقة ثلاثية أصلية مع الثاني المسمى موضوعه، علاقة بهذه الصفة، تجعله قادرا على تحديد الثالث المسمى مؤوله (10)، ثم يضيف مفصلا مكونات الدليل في موضع آخر معرفا إياه بــ: " فالدليل" أو الوحدة الممثلة représentamen هو شيء موجود هاهنا من أجل شخص ما لغرض ما و ذلك على نحو من الأنحاء. و الدليل هذا يتوجه إلى شخص ما أي أنه يحدث في فكر هذا الشخص دليلا مساويا أو قد يحدث فيه دليلا أكثر تطورا. و هذا الدليل المحدث (بفتح الدال) أسميه: مؤول الدليل الأول interprétant . و الدليل موجود هاهنا من أجل شيء ما: هو موضوعه. وهو موجود هنا من أجل هذا الموضوع، لا من حيث كل علاقاته بل من حيث إحالة على نوع من الفكرة التي أسمها أحيانا قاعدة الوحدة الممثلة base de représentamen (11)، و بهذا التصور يكون بيرس قد وجه البحث في المجال السيميائي وجهة خاصة، و أثر في مجالات أخرى كاللسانيات التداولية.

ب ــ لدى فردينان دي سوسير و أتباعه

أما السيميولوجيا فهي مستندة إلى تصور نظــام الدليل عند فردنــان دي سوسيــر(F. De Saussure)، و متطورة بتطوره، حيث يرتبط نظام الدليل لديه بتعريفه للغة، و المتمثل في كونها نظاما من العلامات، يرسلها مخاطب إلى مخاطب أو مرسل إلى متلقي ضمن دورة خطاب مغلقة، إذ يقصي دي سوسير عناصر اللفظ الفيزيولوجية و الفيزيائية، لتقتصر عملية التدليل عنده على الربط بين دال و مدلول، وفق قدرة مستعمل اللغة على القرن و التنسيق بين الدلائل و مدلولاتها، و ذلك طبقا للملكة اللغوية، كما جاء في تحديدات دي سوسير للغة و للعلامة، إثر تمييزه بين اللغة و الكلام، و تصوره لألسنيتين اثنتين (12).

بعدها تم تطوير نظام الدليل على يد رومان جاكبسون (R. Jacobson) (13)،

انطلاقا من مفهوم التواصل كما سبق الذكر، فظهرت عناصر نظامه معدلة على النحو الآتي:

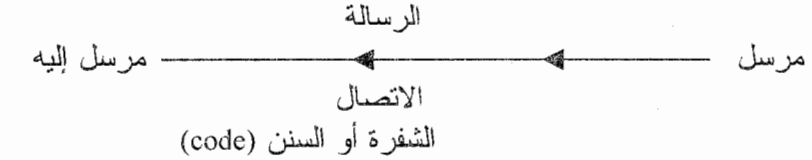

يبرز هذا التمثيل البياني بأن العلامة المعنية هنا تندرج ضمن إطار واسع تتمثل عناصره في الرسالة والسياق و المرسل و المرسل إليه، يدل على أن العناصر الأساسية في دورة الخطاب لدى دي سوسير، ألا وهي الدليل و المرسل و المرسل إليه، لا تمثل كل العناصر الضرورية لنجاح عملية التواصل أو التبليغ، لذا تضف المكونات الأخرى التي حواها التمثيل البياني، باعتبارها شرطا لتحقيق التواصل، و بالتالي ينتصب الدليل ضمن السنن أو الشفرة محاذيا للعناصر الأخرى، و يبقى الإبهام محيطا به، حيث لم يضع دي سوسير حدا نهائيا عند تحديده للدليل، أهو مفردة أم جملة أم ملفوظ ... إلخ، على الرغم من أنه قد أثار هذه المسألة عند حديثه عن اللغة و كياناته(14) .

إن المزدوجة سنن / رسالة (code / message) تقابل الثنائية لغة / كلام (langue / parole) الواردة عند دي سوسير مع العلم أن المزدوجة سنن / رسالة مأخوذة من علوم الاتصال، عن طريق نظرية التواصل، و المقصود بالسنن (code) هو ذلك النظام من الرموز، و تلك القواعد التي تنتج بموجبها الرسالة، أما الرسالة فيراد بها كل شكل تواصلي يستعمل السنن(15).

إن نظام الدليل عند دي سوسير، و إن اتسم بالغموض في بعض الأحيان، كغيره من القضايا الأخرى المطروحة في محاضراته، و على الرغم من ظهوره في صورة ضيقة، فإنه أثار الكثير من التساؤلات، التي كان لها شأن كبير في تطوير نظرية الدليل (16)، كما هي الحال عند جاكبسون، الذي ساهم في توسيعها بعد اكتشافه لأعمال بيرس حول الدليل، لينتهي إلى تقديم نموذج تواصلي، مؤلف من ستة عناصر، لكل عنصر وظيفة، فعنصر السياق يحقق الوظيفة المرجعية، و عنصر المرسل يحظى بوظيفة التأثير و التعبير، أما المرسل إليه يتلقى الرسالة، فيقوم برد فعل، يحقق من خلاله وظيفة المعاناة (fonction conative)، و تبقى وظيفة الرسالة متمثلة في إحداث التواصل أو قطعه أو استعادته (17)، و من هنا يختلف تصور دي سوسير لنظام الدليل عن تصور كل من جاكبسون و بيرس، من خلال كونه عند الأول يخلو من المكون اللساني التداولي، أما الأخيران فيحتفيان بعنصر المؤول للدليل.

تستمر السيميائية ملازمة للسيميولوجيا، إذ يعرف جاكبسون السيميائية بـــ: "السيميائية تدرس تبليغ الرسائل كيفما كانت، في حين تقتصر اللسانيات على التبليغ اللساني أو الرسائل الكلامية" (18)، و لا تبتعد جوليا كريستفا عن هذا التعريف في

تحديدها لموضوع السيميائية، الذي يتمثل حسب رأيها في: " نظرية عامة حول صيغ أو طرق التدليل "، و يستند هذا التعريف الأخير لموضوع السيميائية على نظرة نقدية للدليل و لمفهوم التواصل، تلك النظرة التي أنتجت اتجاهين سيميائيين، أو سيميائيتيــن (19): الأولى تعالج الخبر أو المعلومة من خلال الرسالة، مع الإشارة إلى أن مفهوم الرسالة في حد ذاته غامض(20)، إذ يدل في بعض الأحيان على المعنى المتضمن في خطاب ما، و في الأحيان الأخرى تعني الشكل اللفظي، كما أن كلمة "رسالة" يمكن أن تقوم مقام العلامة بوجهيها الدال و المدلول، هذا الغموض الذي جلب انتقادات لــجاكبسون أضيفت إلى غيرها من الانتقادات الأخرى المتعلقة بتأكيده على انفصال الدليل عن أي مرجع خارجي، لكن مع هذا و رغم النقص الذي يعتري تصور جاكبسون لنظام الدليل يبقى ما قدمه بهذا الشأن إيجابيا خاصة أنه قد مارس الكثير من ثنائيات دي سوسير و أعطاها بعدا تجريبيا و تطبيقيا، أما الاتجاه الثاني فتجسد عبر ما يسمى بالسيميائية التحليلية (sémiotique analytique) التي تراعي الخبر أو المعلومة، و تعير اهتماما خاصا للتحليل النفسي، الذي عن طريقه تميز وضعية الفاعل المتكلم عند ممارسة سيميائية معينة.

إن ما يمكن استنتاجه من المقارنة بين نظام الدليل عند كل من دي سوسير و بيرس هو أن السيميولوجيا عند الأول تندرج ضمن سيكولوجيا اجتماعية، أما عند الثاني تكون السيميائية هي سيميولوجيا التواصل لكن دون معالجة المعنى، فالدليل عنده حامل للمعنى سواء كان أيقونة أو إشارة أو رمزا، و ما دامت سيميائية بيرس منطقية فهي لا تدرس أوضاعا سيمية حقيقية لتستخرج منها المعاني و المقاصد(21).

لقد تطورت السيميائية بفروعها المختلفة، عبر الجهود الرامية للتنسيق، التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية، و ذلك لجمع النتائج المسجلة قبل هذه الفترة في الولايات المتحدة و الاتحاد السوفيتي و فرنسا، ففي الولايات المتحدة ساير وصف الأنظمة الرمزية اللسانيات، و أخذ بقواعدها، بينما كان في الاتحاد السوفيتي متأثرا بالسيبرنتيك (cybernétique) و نظرية الإعلام، أما في فرنسا اتجه البحث السيميائي، من خلال ما قدمه كل من ليفي ستروس و رولان بارت و غريماس، نحو الأشكال الاجتماعية، التي تنتظم و تؤدي وظيفتها بصورة شبيهة باللسان (نظام القرابة، الخرافة، الموضة ... إلخ)، كما اتجه نحو دراسة اللغة الأدبية، و من جهة أخرى سجل نوع من التطور تمثل في نق المفاهيم القاعدية، التي تقوم عليها السيميائية، منها طبيعة الدليل، و ما يفترضه من قضايا متصلة به(22).

بقي مفهوم كل من السيميائية و السيميولوجيا مشتركا على امتداد الستينات، و ظل هدف السيميائية متمثلا في : " إرساء معالم مشروع علم كل الكلم "(23)، كما ظلت السيميائية خاصة في الفترة التي قدم فيها غريماس أعماله الأولى مشروعا على النحو الذي تنبأ به دي سوسير، إذ لم تصل إلى درجة تتأسس فيها كعلم، نظرا لما يتطلبه من مراحل ضرورية، يمر بها إلى حين الاكتمال، و من الأسباب المعيقة لتأسيسها كعلم، عدم اليقين من صلابة المفاهيم الأساسية، التي تقوم عليها السيميائية، خاصة منها

مفهوم الدليل اللساني و غير اللساني، و قد مثلت اللسانيات صعوبة أساسية في وجه السيميائية، و هي تحاول أن ترسي قواعدها، نظرا للمنزلة الخاصة التي تحظى بها اللغة ضمن الظاهرة السيميائية، و نظرا لكون اللغة الطبيعية هي النظام الوحيد، الذي باستطاعته التعبير عن الأنظمة الأخرى، و عن نفسه أيضا، فسيميائية الأنظمة الأخرى (الصوت، اللون و الصورة) تستعير اللغة الطبيعية لتصيغ نفسها أو لتعبر عن ذاتها، و بغض النظر عن علاقة السيميائية باللسانيات تظل الأولى مجموعة اقتراحات متفرقة بعيدة كل البعد عن تكوين تصور منسجم و كلي.

إضافة إلى التحولات التي طرأت على السيميائية خلال الستينات، سجل البحث السيميائي منعرجا جديدا على يد غريماس كما سبق الذكر، و ذلك من خلال ما قدمه من دراسات بكلية العلوم بـــباريس سنة 1963 - 1964، تلك الدراسات التي نشرت سنة 1966 على شكل كتاب يحمل عنوان: " الدلالة البنيوية "(émantique structurale)، هذا الكتاب الذي يعد بداية لتجسيد اتجاه سيميائي محض، فالقضايا المعرفية التي تضمنها الكتاب اعتمدها غريماس فيما بعد، ليؤسس نظريته السيميائية (24)، إلا أن ما جاء في كتاب الدلالة البنيوية من تصورات، لم يزل التداخل القائم بين السيميائية و السيميولوجيا، إذ يؤكد غريماس بأن لا فرق بين هما (25)، و بأن ما يقال عنه، أي عن الفرق، لا يتجاوز كونه مجرد خصومة كلامية، و حتى عند اختيار مصطلح " سيميائية " (sémiotique)، إثر تأسيس الجمعية العالمية للسيميائية، و الاتفاق على استعماله في أول مؤتمرللجمعية من طرف رومان جاكبسون وليفي ستروس وبنفنيست و بارت و غريماس.

3 ــ سيميائية السرد و الخطاب

نهلت سيميائية السرد و الخطاب عند إرساء دعائمها من منبعين اثنين(26)، تمثل الأول في الدراسات التي أنجزت حول الحكايات الشعبية و الخرافة، و الثاني في اللسانيات البنيوية، ثم بدأت في الاستقلال و التفرد، لتصبح تصورا عاما حول شروط إنتاج المعنى و تلقيه، و تجسد هذا التصور من خلال المفاهيم و الإجراءات التي يمكن تطبقها عند التحليل الملموس للوسائل التبليغية أو الأنظمة الدالة، و قد تطورت السيميائية تطورا سريعا من حيث جهازها النظري و أدواتها التحليلية، مقارنة بغيرها من الاختصاصات الأخرى، مما جعلها تلج عوالم خارجة عن مجال الميتولوجيا و الفلكلور اللذين يشكلان ميدانها الأول و الأصلي، و تمتد و تتوسع من خلال تبنيها المجال الأدبي شعرا و قصة و رواية، و لم تقتصر في توسعها على الأدب فقط بل شمل اهتمامها النصوص الدينية و الفلسفية و السياسية و القانونية، و في غمرة امتدادها، و احتضانها للنصوص الثقافية المختلفة، و الخطاب العلمي في العلوم الاجتماعية، أرادت لنفسها و إن بصفة ضمنية، أن تكون نظرية لها إمكاناتها و قدراتها الخاصة على الإحاطة بقدر كبير بأغلب أشكال إنتاج المعنى لدى المجتمعات.

أصبحت سيميائية النص الأدبي بوصفه خطابا سرديا فرعا قائما لذاته، و ذلك بحكم الارتباط الموجود بينها و بين اللسانيات من جهة، و من جهة أخرى بينها و بين لسانيات الخطاب و النص، تمثل ذلك في استعارتها و توظيفها لبعض المفاهيم الأســـاسية التي أنتجهـــا النحو التوليدي (27)، كمفهوم الكفـــاءة أو الطـــاقة الكـــاملة (compétence)، و مفهوم الإنجاز أو الطاقة الحادثة (performance)، و مفهوم التحويل (transformation)، كما أن النص أصبح حتما يحتوي على بنية سطحية (structure de surface)، و بنية عميقة (structure profonde)، يجب تحليلهما و إبراز ما بينهما من علائق، لأن انسجام النص ناتج عن تضمنه لبنية محكمة التركيب، و لئن اتفق السيميائيون و سلموا بوجود بنية سطحية و بنية عميقة، فإنهم اختلفوا حسب اتجاهاتهم العلمية و الإيديولوجية في تحديد العناصر المكونة لكل بنية،و من هنا يلاحظ وجود اتجاهين رئيسيين، الأول يمثله غريماس، و تشتمل البنية العميقة عنده على القوانين التي يخضع لها العالم السردي، إذ ينصب الاهتمام على البناء الوظائفي و تحليل العلاقات بين الفاعلين، في المستويين العمودي و الأفقي، أي في مستوى جدول الاختيار و جدول التوزيع، أما البنية السطحية فهي تتشكل من الصياغة التعبيرية، إذ يحلل الدارس خصائص الشكل الأدبي و الخصائص الأسلوبية، و في هذا المستوى يمكن تحليل علاقة اللغة بالسياق الخارجي، أما الاتجاه الثاني و من أبرز ممثليه جوليا كريستيفا فهو ينحو إلى التعمق في المنهج الاجتماعي، وهو اتجاه يستمد أصوله من التحليل النفسي و الماركسية و اللسانيات.

لقد تبلور الاتجاه الأول على يد غريماس(28) و ذلك منذ ظهور كتابيه" الدلالة البنيوية " سنة 1966 و" في المعنى " (du sens) سنة 1970 حيث تأسست حول غريماس مدرسة سيميائية، و في سنة 1976 ظهر كتابه "سيميائية النص "(émiotique du texte) و " السيميائية و العلوم الإنسانية" (sémiotique et sciences sociales) ثم كتاب " في المعنى II " سنة 1979، بعدها تضاعفت كتب التحسيس بهذا المجال إلى غاية ظهور " المعجم المعقلن للنظرية اللسانية " سنة 1979 (dictionnaire résonné de la théorie du langage)، و تتميز هذه المدرسة السيميائية أي مدرسة باريس بمجموعة أبحاث منسجمة في السرد و الخطاب أنجزها كل من غريماس و ف. راستي و ج. كلود كوكي و ك. شبرول وج. كورتيز و لوندوفسكي (E. Landowski)، و تستمد مبادئ هذه المدرسة على معطيات بروب التي تمت مراجعتها من طرف غريماس، و بالتحديد تلك المتعلقة بمرفولوجيا الحكاية التي وسعها على مستويين :

أ ــ مستوى دوائر الأعمال الذي استمد منه النموذج العاملي.

ب ــ مستوى تتابع الوظائف الذي استخلص منه عددا معينا منها، نظمه على أسس مغايرة لتلك التي وجدت عليها عند بروب، كما استخلص أيضا من هذا المستوى ما أسماه المضمون الأولي (contenu initial)، و المضمون النهائي (contenu final) الذي يقلب الأول، كما أنه وصل من خلال هذا المستوى إلى تقديم مفهوم آخر هو البنية الأوليـــة للمعنى (structure élémentaire de la signification) أو المربـــع

السيميائـــي (carré sémiotique).

من البديهي أن الوقوف عند التفاصيل التي ينطوي عليها هذا الاتجاه، قد يوقع في متاهات يصعب الخروج منها، و السبب في ذلك الاختلاف القائم بين الدارسين، و هو اختلاف بلغ حده الأقصى ظاهرا على الصعيد المفهومي و المنهجي و هو أمر يقره الباحثون الذين توغلوا في معطيات هذه المدرسة، نظرا لما تتسم به نظرية غريماس من تعقيد و صعوبة إلى درجة جعلت أحد الباحثين و هو يحاول بسط النظرية و تقديمها للقارئ العربي، يصف محاولته تلك بالمجازفة "تهيبنا الإقدام عل بسط نظرية قريماس السردية و تقحم فكر هذا المنظر لما يحف به من إشكال و تعقيد يجعلان مباشرته بمثابة المجازفة" (29)، يعود سبب التعقيد الذي تنطبع به النظرية إلى كون غريماس لم يؤلف دراسة شاملة تلم بالجهاز النظري الذي يفترض في النظرية، فالعدة الممثلة لذلك الجهاز النظري، جاءت مبثوثة عبر مجموعة من الدراسات التي حوتها كتب مستقلة كالتي سبق ذكر البعض منها، أو في مجلات مختصة، إضافة إلى ما تضمنته من ثراء معرفي، يتطلب جهدا كبيرا لفك مغاليقه و تمثله، كما يكمن ثراء النظرية الغريماسية عل وجه الخصوص في بعض الأدوات التي أثبتت نجاعتها عند تطبقها على النصوص السردية و مقاربتها وفق قواعد موضوعية تتم بموجبها قراءتها و الكشف عن معانيها.

إن الصعوبة المذكورة و المتمثلة في الغموض الذي يكتنف نظرية غريماس، مما يجعل الخوض في هذا الاتجاه مغامرة حقيقية يقرها باحث آخر بقوله : "إن الموضوع الذي أريد أن أعالجه في هذه الأطروحة كان مبعثه ما شعرت به من الحيرة و التردد و الارتباك و أنا أقدم على اختياره شعورا يعبر عن صعوبة المغامرة في حقل معرفي بكر لا تستجيب أدواته المنهجية في الوقت الراهن للبحث: " لمتطلبات تحليل النصوص الأدبية المعقدة "(30)، و إذا كان السبب في الصعوبة متمثلا بالدرجة الأولى في قصورها و عدم نضجها، فإن لها وجها آخر تجسد على مستوى الخطاب العلمي لدى الباحثين العرب الذين احتكوا بهذا المجال المعرفي، محاولين التعريف به و نشره، إلا أن محاولاتهم اتسمت بالتشويش و عدم الاستقامة، نظرا للاختلافات الجوهرية الموجودة بينهم في مجال ترجمة المصطلح بوصفه مفتاحا لهذا النوع من المعرفة، و الذي بدونه يظل بابها موصدا في وجه القارئ العربي، يحول دون تبليغه الرسالة العلمية، و لتلك الاختلافات أيضا أثر سلبي تمثل في الاضطراب المعرفي، الذي يعيشه القراء، باعتباره وضعا سلبيا أفرزته الجهود الفردية المتفرقة، هذا الوضع الذي لا يمكن إصلاحه إلا بتجاوز المستوى الفردي و العشوائي، و بالارتقاء إلى المستوى الجماعي المنظم في إطار مشروع علمي، ذي أهداف محددة.

خـــاتمة

نستخلص من هذا العرض لأهم الدعائم النظرية و الخلفيات المعرفية، التي تقوم عليها كل من السيميائية و السيميولوجيا، بأنهما حقلان معرفيان واسعان و متشعبان،

يتفرعان بدورهما إلى اتجاهات صغرى، تنبئ عن الاختلاف في تحديد الموضوع و تصور الدليل، و المسار، فإن التقتا حول الدليل ، فإنهما تفترقان حول تصوره في أبعاده المختلفة، و نستنتج أيضا أن البحث في مسألة المعنى، وفق هذا المنظور أو ذاك، يقتضي الحسم و التدقيق، حتى لا يكون البحث ركاما مبهما، و مزجا بين المتناقضات.

الهــوامش

1. Oswald Ducrot et Tzvetan Todorov, "Dictionnaire encyclopédique des Sciences du langage, éd. Seuil, 1972, p. 113.
2. رولان بارت : مبادئ في علم الأدلة، ترجمة و تقديم محمد البكري، دار الحوار للنشر و التوزيع، ط 2، 1987، ص 29.
3. فرديناند دي سوسير : محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص 27.
4. J. Greimas et J. Courtés: "Dictionnaire résonné de la théorie du langage", Hachette 1973, p. 339.
4. فرديناند دي سوسير: محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي و مجيد النصر، مرجع سابق ذكره، ص 90.
6. A. Rey: "Théories du signe et du sens", éd. Klincksieck, 1976, p.13-22.
7. U. Eco: "La structure absente", Mercure de France, 1972, p. 23.
8. Alain Rey, "Théorie du signe et du sens", op.cit., p. 290-291 .
9. رولان بارت: مبادئ في علم الأدلة، ترجمة و تقديم محمد البكري، الطبعة الثانية 1987، ص 16.
10. A. Rey , "Théories du signe et du sens", op.cit., p. 17.
11. الجيلالي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 9.
12. فردنان دي سوسير: محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي و مجيد النصر، مرجع سابق الذكر، ص 31 ــ 33.
13. عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة عالم المعرفة رقم 232 (الكويت)، 1998، ص 272 ــ 273.
14. فردنان دي سوسير: محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي و مجيد النصر، مرجع سابق الذكر، ص 125 ــ 130.
15. Georges Mounin, "Dictionnaire de la linguistique", P.U.F., 1974, p. 71.
16. Bertil Malmberg, "Les nouvelles tendances de la linguistique", Traduit par Jacques Gengoux, P.U.F., 1968, p.66-67.
17. الجيلالي دلاش : مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، ص 15 ــ 16.
18. J. C. Coquet, "Sémiotique littéraire", Maison Mame, 1973, p. 7.
19. الجيلالي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، مرجع سابق الذكر، ص 8 ــ 9.
20. عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة، ص 274 ــ 275.
21. C.S. Peirce, "Ecrits sur le signe, rassemblés", traduits et commentés par : Gérard Deladalle, éd. Seuil, 1978, p. 212-214.
22. O. Ducrot et T. Todorov, "Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage", op.cit., p. 119.

23. رشيد بن مالك: السيميائية بين النظرية و التطبيق (رواية نوار اللوز نموذج)، رسالة دكتوراه دولة، إشراف د. وسيني لعرج و د. عبد الله بن حلي ، جامعة تلمسان، 1994-1995، ص 49.
24. رشيد بن مالك: البحث السيميائي المعاصر، الملتقى الدولي الأول حول السيميائية و النص الأدبي، جامعة عنابة، أيام 15 — 16 — 17 ماي 1995، ص 2.
25. A. Rey, "Théories du signe et du sens", op.cit., p. 301 .
26. A.J. Greimas, E. Landowski *et al.*, "Introduction à l'analyse du discours en sciences sociales", Hachette 1979, p. 5-6.
27. علي العش: مساهمة في التعريف بالسيميائية الأدبية، مجلة الحياة الثقـافية، عدد 37/36، سنة 1985، ص 194 — 196.
28. Jean Michel Adam, "Le récit", P.U.F., 1984, p. 59 .
29. محمد الناصر العجيمي: في الخطاب السردي (نظرية قريماس)، الدار العربية للكتاب، 1993، ص 7.
30. رشيد بن مالك: السيميائية بين النظرية و التطبيق، مرجع سابق الذكر، ص 2. □